فتح الأندلس

1- الإطار الجغرافي والبشري :

المراد بلفظ الأندلس اسبانيا الإسلامية بصفة عامة. أطلق هذا اللفظ في بادئ الأمر على شبه جزيرة ايبيريا كلها، على اعتبار أنها كانت جميعها في يد المسلمين. ثم أخذ لفظ أندلس يقل مدلوله الجغرافي شيئا فشيئا تبعا للوضع السياسي الذي كانت عليه الدولة الإسلامية في شبه الجزيرة، حتى صار لفظ الأندلس آخر الأمر قاصرا على مملكة غرناطة الصغيرة، وهي آخر مملكة إسلامية في اسبانيا وتقع في الركن الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة ايبيريا.[1]

وكلمة أندلس لم تأت من أندلس بن يافث كما ورد في بعض المصادر،[2] بل اشتقها العرب من كلمة واندلوس وهي اسم قبائل الوندال الجرمانية التي اجتاحت أوربا في القرن الخامس الميلادي واستقرت في السهل الجنوبي وأعطته اسمها، ثم جاء العرب وعربوا هذا الاسم إلى أندلس، وبهذا الاسم ظلت البلاد تعرف إلى نهاية الحكم الإسلامي. وبعد سقوط مملكة غرناطة وانتهاء الحكم الإسلامي في اسبانيا سنة 1492م، أطلق الإسبان اسم اندالوثيا Andalucia على الولايات الجنوبية الاسبانية ولا زالت تحمله لحد الآن، وتشمل هذه المنطقة ثماني ولايات صغيرة هي: المرية، وغرناطة، وجيان، وقرطبة، ومالقة، وقادش، وولية، وإشبيلية.[3]

وتقع شبه جزيرة ايبيريا في جنوب غرب أوربا، وهي تشمل إسبانيا والبرتغال، وهي عبارة عن هضبة متوسط ارتفاعها ستمائة متر عن مستوى سطح البحر. ويحدها من الشرق البحر المتوسط ومن الغرب المحيط الأطلسي، ويفصلها عن فرنسا شمالا سلسلة جبال البُرت أو البُرتات، وتسمى باللغات الأوربية البرانس Pirineos. وتشكل هذه الجبال حاجزا طبيعيا بين جنوب فرنسا وشبه جزيرة ايبيريا، ولا يمكن العبور بين اسبانيا وفرنسا إلا من خلال ممرات ومضايق تصل بين البلدين، ولا يفصل شبه الجزيرة عن المغرب الأقصى، أو قارة افريقيا إلا مضيق جبل طارق الذي يبلغ عرضه في أضيق جهاته خمسة عشر كلم،

---

[1] العبادي أحمد مختار، مرجع سابق، ص 17.

[2] مؤنس حسين، موسوعة تاريخ الأندلس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1996. ج 1، ص 10.

[3] العبادي أحمد مختار، مرجع سابق، ص 17؛ مؤنس حسين، معالم، ص 263.

وبذلك تكون شبه جزيرة ايبيريا أقرب إلى افريقيا ومعزولة عن أوربا. وبسبب هذا الحاجز الكبير، كان الفارق الحضاري بين ما يقع جنوبي الجبال وشمالها، فرقا جسيما يلاحظه الانسان بمجرد انتقاله من إسبانيا إلى فرنسا. وهناك مثل فرنسي يقول أن أوربا تنتهي عند جبال البرتات أي عند حدود فرنسا الجنوبية. وقد أراد الفرنسيون من وراء هذا القول الإساءة إلى الشعب الاسباني وذلك عن طريق إخراجه من نطاق الشعوب الأوربية واعتباره في عداد الشعوب الافريقية المتخلفة نسبيا. وربما كان الفرنسيون متحاملين على الاسبان في هذا القول نظرا للعداء التقليدي المتبادل بين الفرنسيين والاسبان، ولكن ينبغي في الوقت نفسه الأخذ بعين الاعتبار الصلات الطبيعية والتاريخية الوثيقة التي تربط اسبانيا بإفريقيا في مختلف العصور مما يجعل من هذا المثل الفرنسي شيئا من الحقيقة.[1]

2- الفتوحات الإسلامية في الأندلس

كانت شبه جزيرة ايبيريا قبيل الفتوحات الإسلامية خاضعة لحكم القوط الغربيين، وهم من الجرمان البرابرة الذين اقتحموا أراضي الامبراطورية الرومانية في أوربا، ثم استقروا في جنوب غرب أوربا خلال القرن الخامس الميلادي، وأنشأوا مملكة كانت من بين أقوى الممالك الجرمانية، وسادوا شبه جزيرة ايبيريا كلها، واتخذوا من مدينة طليطلة عاصمة لهم، وظلت مملكتهم قائمة في اسبانيا حتى الفتوحات الإسلامية في أواخر القرن الأول الهجري/أوائل القرن الثامن الميلادي.[2] وقبيل الفتح، كانت هذه المملكة تعاني ضعفا سياسيا واجتماعيا، وصراعا طائفيا ومذهبيا، وكان يحكمه ملك يسمى ومبا، ثار عليه حاكم قرطبة القوطي واسمه رودريك (Rodrigo)، وهو لذريق في المصادر العربية، وخلعه عن العرش وتولى مكانه، واتبع سياسة ظالمة لأهل البلاد، واضطهد اليهود، فتغيرت قلوب الناس عليه وفكروا في القيام ضد حكمه. ووجدوا أن خير ما يعينهم على ذلك هو الاستعانة بالمسلمين الذي وصلوا إلى المغرب الأقصى، ولم يعد يفصلهم عنهم إلا الزقاق الذي يسمى مضيق جبل طارق. وتولى الوساطة بين الساخطين على رودريك وطارق بن زياد –قائد جيوش المسلمين عند طنجة– الكونت يوليان (Julien) حاكم سبتة. ولم تعرف حقيقة هذا الرجل بدقة، هل كان حاكما للإقليم باسم الدولة البيزنطية، أم كان ممثلا لملك القوط في إقليم سبتة وطنجة.

---

[1] العبادي أحمد مختار، مرجع سابق، ص 18-22؛ مؤنس حسين، معالم، ص 263-264.

[2] عاشور سعيد عبد الفتاح، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، 1976. ص 71.

وحسب الروايات التي وردت في المصادر أن العلاقة كانت سيئة بين لذريق ويوليان، ويعود السبب في ذلك أن يوليان كان يتطلع إلى الانتقام من الملك لذريق الذي اعتدى على شرف ابنته التي كانت تتربى في قصره.[1] ويرى كثير من المؤرخين أن قصة ابنة يوليان في بلاط طليطلة، هي محض أسطورة، ومن اختراع القصاص والرواة، ولا تمت إلى الواقع بأية صلة.[2] ويرجح المؤرخون رواية أخرى تقول أن القوط كان يحكمهم ملك اسمه وتيزا (Witiza) وهو غيطشة في المصادر العربية، وكان هذا الملك قد استولى على العرش بعد وفاة أبيه إچيكا (Egica) دون أن ينتظر قرار مجلس النبلاء بانتخابه كما جرت العادة بذلك، واستبد بالملك، وحاول أن يحد من سلطة النبلاء والأحبار، وأن يجمع السلطة في يد العرش. ولهذا اشتدت معارضة النبلاء ضده، وزاد الأمر تعقيدا أن غيطشة حاول هو الآخر أن يقيم ولده وقلة (Akhila)، وليا لعهده. فسخط عليه الأشراف ورجال الدين، ودبروا لإسقاطه ثورة بعد ثورة. وكان الشعب يرزح أبدا تحت نير الجور والإرهاق، فكان عرش القوط يرتجف فوق بركان مضطرم من السخط. وقاد الثورة عندئذ زعيم جريء هو رودريك أو لذريق (Rodrigo)، وكان يتزعم حزبا قويا، والتف حوله رجال الدين والأشراف والأسر الرومانية، فجمع جيشا كبيرا ونادى بنفسه ملكا. ووقعت بين الفريقين حرب أهلية شديدة. وهنا تختلف الروايات فيقال إن وتيزا قتل في هذا النضال وخلص الملك لمنافسه، وفي رواية أخرى أن ردريك ظفر به وسمل عينيه، ويقال أيضا إنه ارتد إلى إحدى الولايات الشمالية وامتنع بها حتى وفاته. ومهما كانت الرواية صحية، فإن رودريك تمكن من إزاحة خصمه عن العرش وتولى هو مكانه حوالي سنة 711م. ولكن المعركة لم تتوقف عند هذا الحد، بل استمرت بين رودريك وأبناء وتيزا، وأقاربه، وبعض أنصارهم وشيعتهم.[3] وهنا ينقسم الجيش والرأي العام إلى فريقين، الأول يوالي الملك الجديد، والثاني يوالي الملك المخلوع، وهم أنصار الحكم القديم. ودخلت مملكة القوط في فوضى سياسية.[4] وكان رودريك قوي الجانب وافر الشجاعة والعزم، فاستطاع أن يخمد الثورة في كل ناحية، واستتب له الأمر حينا، ومع ذلك فقد بقي عرش القوط مضطربا

[1] طه عبد الواحد دنون، مرجع سابق، ص 138؛ مؤنس حسين، معالم، ص 268.

[2] عنان محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، ط 4، القاهرة، 1997. ج 1، ص35. مؤنس حسين، فجر الأندلس، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط 2، جدة، 1985. ص 59-61.

[3] عنان محمد عبد الله، مرجع سابق، ج 1، ص 33-34.

[4] العبادي أحمد مختار، مرجع سابق، ص 51-52.

يهتز في يد القدر، وكان الخطر يجثم في ناحية أخرى. ذلك أن خصوم رودريك اتجهوا بأبصارهم إلى خارج الجزيرة.

وكان الود معقودا بين يوليان –حاكم سبتة– وبين الملك وتيزا وأبنائه، ويرتبط بهم بصلات وثيقة. وكان من أكابر الأشراف الذين يرجع أصلهم إلى القوط، وإنه كان قريبا للملك وتيزا. ولما نشب الخلاف الداخلي حول العرش، انضم يوليان إلى أنصار الحكم القديم وأنصار الملك وتيزا. ولذلك سيقف يوليان في صف المعارضين للملك رودريك، وكان يخشى من عواقب الحكم الجديد على مركزه وسلطانه. فاتصل به أبناء وتيزا وباقي المعارضين لرودريك، لمساعدتهم في خلع الملك الجديد، واستقر الرأي على الاستنجاد بالمسلمين جيران يوليان. واتصل يوليان بدوره بطارق بن زياد أو بموسى بن نصير، حسب الروايات، وهون عليه غزو اسبانيا مبينا له سوء الأحوال فيها، فاستجاب موسى لطلبه، وأقدم على هذا الفتح بعد استئذان الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك.[1] ويبدو أن معظم المؤرخين يميلون إلى هذا التعليل التاريخي للتحالف الذي عقد بين يوليان وموسى بن نصير وانتهى بفتح المسلمين لإسبانيا.

ومهما كانت الأوضاع في شبه جزيرة ايبيريا، فإن فكرة فتح الأندلس هي فكرة إسلامية تماما. ويروى أنها فكرة قديمة تعود إلى أيام الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)،[2] وكان القائد عقبة بن نافع الفهري (ت 64هـ/683م) يفكر في اجتياز المضيق إلى اسبانيا.[3] ومن ثمة فإن فكرة فتح الأندلس لم تظهر صدفة بعد اتصال يوليان بطارق بن زياد أو بغيره من المسلمين أو من الإسبان، ولكن هذه الاتصالات جاءت على ما يبدو في الوقت الذي كان موسى بن نصير يفكر في تنفيذ فكرة الفتح. وكما كانت فتح مصر على يد عمرو بن العاص، نتيجة لخطة موضوعة أقرها الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) مع كبار قادته في اجتماع الجابية بالجولان جنوبي دمشق سنة 18هـ. كذلك كان فتح المسلمين لإسبانيا نتيجة

[1] مؤنس حسين، فجر الأندلس، ص 55-56؛ عنان محمد عبد الله، مرجع سابق، ج 1، ص 35؛ العبادي أحمد مختار، مرجع سابق، ص 52.

[2] ابن كثير، مصدر سابق، مج 4، ج 7، ص 204.

[3] ابن عذارى، مصدر سابق، ج 1، ص 26.

لخطة موضوعة أيضا، أقرها الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بدمشق، باتفاق مع قائده على المغرب موسى بن نصير.[1]

وسواء اتصل يوليان بطارق بن زياد الذي كان آنذاك في طنجة أو بموسى بن نصير الذي كان في القيروان، فمما لا شك فيه أن هذا الأخير استشار الخلافة في دمشق بشأن فتح الأندلس. وقد ترددت الخلافة –بادئ الأمر– بالقيام بمثل هذا العمل الكبير، خوفا على المسلمين من المخاطرة في مفاوز أو إيقاعهم في مهالك. لكن موسى أقنع الخليفة الوليد بالأمر، ثم تم الاتفاق على أن يسبق الفتح اختبار المكان بالسرايا أو الحملات الاستطلاعية.[2] "فكتب موسى إلى الوليد بما فتح الله عليه وما دعاه إليه يوليان، فكتب إليه الوليد : خضها بالسرايا ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال، فكتب إليه موسى: إنه ليس ببحر متسع وإنما هو خليج يبين ما وراءه، فكتب إليه الوليد : أن اختبرها بالسرايا وإن كان الأمر على ما حكيت".[3]

ولما نال موسى موافقة الخلافة في دمشق، أرسل إلى طارق بن زياد يأمره بإرسال سرية تستطلع وتكتشف المنطقة. فأرسل طارق في سنة 91هـ/710م بعثا استطلاعيا يقوده قائد من قادة البربر يسمى طريف بن زرعة بن أبي مدرك، على متن أربعة مراكب هيئت من قبل يوليان، فقام طريف بمهمته خير قيام وأغار على الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة وعاد بغنائم وافرة دون أن يلقى مقاومة ومن ذلك الحين أصبح اسم طريف (Tarifa) يطلق على بلدة صغيرة جميلة في أقصى الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة.[4]

تشجع موسى بن نصير بهذه النتيجة، وتبين له أن ما قاله يوليان عن ضعف المقاومة الاسبانية كان صحيحا، وأعد جيشا كبيرا من سبعة آلاف محارب لفتح الأندلس بقيادة قائده طارق بن زياد نائبه على

---

[1] العبادي أحمد مختار، مرجع سابق، ص 54.

[2] الحجي عبد الرحمن علي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، 92-897هـ (711-1492م)، دار القلم، ط 2، بيروت، 1981. ص 45.

[3] ابن الأثير، مصدر سابق، ج 4، ص 120.

[4] مؤنس حسين، معالم، ص 269.

طنجة. ويتبين من هذا، أن فتح المسلمين لإسبانيا، لم يكن منذ البداية مغامرة حربية ارتجالية، بل كان فتحا منظما حسب خطة.[1]

عبر طارق إلى الأندلس في شعبان 92هـ/افريل-ماي 711م، ونزل بصخرة كالبي فأصبحت تسمى باسمه، وهناك أنشأ قاعدة وحصنا، عهد في حمايته إلى يوليان. ثم سار إلى الشمال حتى بلدة تسمى قرطاجنة وترك بها حامية، ثم انحدر إلى الجنوب وعسكر في رأس بارز في البحر سماه العرب الجزيرة الخضراء ثم سار إلى الجنوب حتى بلغ الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة. وسار بمحاذاة ذلك الساحل حتى بلغ ارضا سهلية واسعة ضرب فيها معسكره في مواجهة جبل طارق، ثم أخذ ينظم قواته انتظارا للقوط.[2]

كان روديك إذ ذاك مشغولا في شمال شبه الجزيرة لما بلغه خبر نزول المسلمين، ويبدو أن الأخبار التي بلغته روعته روعا شديدا، "فنهض إليهم بجر أمم الأعاجم، وأهل ملة النصرانية في زهاء أربعين ألفا"،[3] فأسرع نحو طليطلة عاصمته حيث جمع ما تيسر له من الجند، وفي نفس الوقت طلب طارق مزيدا من الجند، فأرسل له موسى خمسة آلاف أخرى وبهذا أصبح جيشه اثنا عشر ألفا، ورأى طارق أن يتريث بعض الشيء قبل أن يغامر بالمسير إلى إشبيلية كما كان يريد. ولم يلبث أن أقبل رودريك من ناحية مدينة شذونة (سيدونيا) على رأس حشود ضخمة. وهناك مبالغة في حجم جيشه، فقد قدر أن عدده يتراوح بين أربعين ومائة ألف، وهي في كل الحالات تفوق بكثير ما كان مع طارق.[4]

التحم الجيشان في الأيام الأخيرة من شهر رمضان سنة 92هـ/711م، عند نهر صغير يدعى وادي لكة، ودام القتال ثمانية أيام،[5] ودارت في كل المنطقة المحصورة بين جبل طارق ومجرى نهر البرباط وبحيرة الخندق والتي تمتد إلى مدينة شذونة شمالا، والغالب أن القتال دار في نواح متعددة من تلك المنطقة وربما وصلت إلى شريش. وعلى الرغم من أن القوط، عموما، قاتلوا قتالا مريرا في البداية، فقد انهزموا هزيمة شنيعة. انجلت المعركة عن نصر عظيم للمسلمين حطم مقاومة خصومهم وفتح أمامهم شبه الجزيرة الإيبيرية

[1] العبادي أحمد مختار، مرجع سابق، ص 55.

[2] مؤنس حسين، معالم، ص 269.

[3] ابن خلدون، مصدر سابق، مج 4، ق 1، ج 7، ص 254.

[4] نعنعي عبد المجيد، الدولة الأموية في الأندلس التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، بيروت، 1986. ص 54.

[5] ابن عذارى، مصدر سابق، ج 2، ص 8.

بحيث ما اضطروا بعد ذلك، لإنجاز الفتوح، أن يخوضوا معركة بهذه الأهمية. سقط من الإسبان في ساحة الوغى خلق كثير واختفى زعيمهم رودريك، إذ ذكرت مصادر عربية إنه قتل وقالت أخرى إنه ألقى بنفسه في مياه النهر وما عثر له على أثر بعد ذلك.[1] وإذا كانت معركة اليرموك قد فتحت أبواب الشام أمام المسلمين، فإن معركة لكة قد فتحت أبواب الأندلس أمام المسلمين.

فقد المسلمون في هذه المعركة عددا كبيرا من القتلى والأسرى بينهم بعض زعمائهم وقدامى مجاهديهم، ولكن الانتصار رفع معنوياتهم بشكل عظيم. وصمم قائدهم طارق بن زياد، على تجاوز ما تركته المعركة في جيشه من جروح ونكبات، ومتابعة الفتح لقطف ثمار انتصاره. ولمنع القوط من أية محاولة لتوحيد صفوفهم، قرر طارق، أن يزحف إلى طليطلة عاصمة القوط الغربيين، وهي تبعد عن مكان المعركة بما يزيد على ستمائة كلم، في أراض وعرة كلها جبال ووديان ومضايق عسيرة. ونصحه يوليان بتفريق جيشه وإرسال عدة حملات إلى مناطق أخرى من إسبانيا، وقد قبل طارق هذه النصيحة، وأرسل جيوشا إلى مالقة والبيرة، ومرسية وقرطبة.[2] ويبدو أن موسى كان قد أمر طارق بن زياد، من باب الاحتياط، أن يعود إلى افريقية إذا ظفر في قتال القوط في الأندلس، أو أن يلبث مكانه ينتظر منه أمرا جديدا. ولو عمل بأمر موسى لكان من الواجب أن يعود إلى افريقية بعد هذا النصر كما عاد عبد الله بن أبي سرح إلى مصر بعد سبيطلة قبل ذلك بخمسة وستين عاما، ولكن المسلمين تعلموا كثرا خلال هذه المدة. ويبدو أن طارقا كان أبعد نظرا، ووجد أن الأبواب قد فتحت أمامه فلا معنى لتركها والعودة إلى افريقية.[3]

واستمر طارق في زحفه الخاطف نحو الشمال حتى بلغ العاصمة طليطلة، فدخلها دون مقاومة تذكر، إذ كان حكامها وأهلها قد فروا منها فكانت المدينة شبه خالية تقريبا، وغنم المسلمون كنوز وذخائر ضخمة من كنائس المدينة وقصورها.[4] وتتحدث المصادر عن غنيمة ضخمة يسمونها مائدة سليمان بن داوود (عليه السلام)، طار صيتها في الروايات الإسلامية.[5] وما هي في الحقيقة إلا مذبح كنيسة طليطلة،

---

[1] نعنعي عبد المجيد، مرجع سابق، ص 55؛ مؤنس حسين، موسوعة، ص 269.

[2] طه عبد الواحد دنون، مرجع سابق، ص 152.

[3] مؤنس حسين، فجر الأندلس، ص 269.

[4] العبادي أحمد مختار، مرجع سابق، ص 70.

[5] ابن عذارى، مصدر سابق، ج 2، ص 12، 17.

كان رجال الكنيسة يهتمون بصناعته، وهو عبارة عن منضدة فاخرة توضع في صدر الكنيسة ليقف عندها القس ليقوم بالصلاة، وكانت منضدة غالية محلاة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة، وعليها أدوات الصلاة من صلبان وكؤوس وكتب مقدسة وأجراس، ولم تكن بمائدة ولا صلة لها بسليمان (عليه السلام).[1] ومن طليطلة، كتب طارق إلى موسى بن نصير يبلغه الفتح العظيم،[2] وخشي أن يقطع عليه العدو الطريق في هذه البلاد الجبلية الوعرة، لا سيما وأن فصل الشتاء كان قد اقترب، وتعب المسلمون من الجهد الذي بذلوه، وثقلوا بالغنائم التي جمعوها، فاستنجد طارق بموسى بن نصير.[3]

وتلقى طارق أوامر موسى بوقف الفتح. وكان ذلك لعام فقط من عبوره لإسبانيا. وقد اختلف المؤرخون في تعليل البواعث التي حملت موسى على أن يصدر أوامره إلى طارق بوقف الفتح؛ فقيل إن موسى لم يكن يتوقع كل هذا الفوز لقائده ومبعوثه، فلما وقف على مبلغ فوزه وتقدمه، تحول إعجابه به إلى حسد وغيرة، وخشي أن ينسب ذلك الفتح العظيم إليه دونه، فكتب إليه ألا يتقدم حتى يلحق به، ويتوعده بالعقاب إذا توغل بعد بغير إذنه، "وكان قد بلغه ما صنع طارق فحسده"،[4] "وكتب إلى طارق يتوعده بأنه يتوغل بغير إذنه، ويأمره ألا يتجاوز مكانه حتى يلحق به".[5] ولكن البعض يعلل غضب موسى على طارق، بمخالفة هذا الأخير لأوامره الصادرة إليه بألا يجاوز قرطبة أو حيث تقع هزيمة القوط. وهذا تعليل حسن يتفق وما أثر عن موسى من الحيطة والحذر، فقد ينكب المسلمون إذا توغلوا في أراض ومسالك مجهولة. على أن ذلك لا يمنع من أن يكون للغيرة أثرها أيضا في نفس موسى وتصرفه.[6] وللمؤرخين في هذا الموضوع آراء ونظريات كثيرة.[7]

---

[1] المقري (احمد بن محمد التلمساني (ت 986هـ))، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حققه إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988. ج 1، ص 272.

[2] مؤنس حسين، معالم، ص 271.

[3] العبادي أحمد مختار، مرجع سابق، ص 70.

[4] ابن الأثير، مصدر سابق، ج 4، ص 123.

[5] ابن خلدون، مصدر سابق، مج 4، ق 1، ج 7، ص 254.

[6] عنان محمد عبد الله، مرجع سابق، ج 1، ص 52.

[7] مؤنس حسين، فجر، ص 84-90؛ الحجي عبد الرحمن علي، مرجع سابق، ص 85-90.

لم يتردد موسى في السير إلا الأندلس في قوة كبيرة في رمضان 93هـ/جوان 712م، وعبر إلى العدوة الشمالية ومعه قوة تقدر بثمانية عشرة ألف رجل، غالبيتهم من العرب هذه المرة. وبعد أن نزل في الجزيرة الخضراء، سار في طريق آخر لم يسلكه طارق بن زياد قبله.[1] واستولى على مدن أخرى لم يستول عليها طارق، مثل قرمونة (Carmona) واشبيلية (Sevilla) وماردة (Merida) ثم التقى بطارق عند نهر التاجو (Tajo) بالقرب من العاصمة طليطية. ويقال إن موسى أهانه أو ضربه بالسوط وغير ذلك،[2] ولكن كل هذا مستبعد، وربما يكون الرجلان قد تعاتبا؛ لأنهما عقب ذلك مباشرة سارا معا لمواصلة الفتوح.[3] حيث تابع القائدان سيرهما نحو جبال البرت (Pirinios) في أقصى الشمال، وأخذت المدن تتساقط في أيديهما تباعا مثل سرقسطة (Zaragoza) ووشقه (Heusca) ولاردة (Lerida)، حتى بلغا ساحل البحر الشمالي (Cantabrico) عند حدود فرنسا الجنوبية.[4]

قضى موسى شتاء ذلك العام في مدينة طليطلة، ومن هناك أرسل الرسل، ومنهم مغيث الرومي مولى الخليفة الوليد بن عبد الملك وفاتح قرطبة، إلى دمشق يزفون إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك بشرى ما فتح الله من مدن وحصون في شبه الجزيرة الإيبيرية على المسلمين.[5] وهنا فكر القائد الجريء في أن يخترق بجيشه جميع أوربا غازيا فاتحا، وأن يصل إلى الشام من طريق القسطنطينية، "وجمع أن يأتي المشرق على القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس، ويخوض ما بينها من بلاد الأعاجم أمم النصرانية مجاهدا فيهم مستلحما لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة".[6] ولم يك ثمة ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم، فقد كان الإسلام يومئذ في ذروة الفتوة والقوة والبأس. وكانت أمم الفرنجة والجرمان من جهة أخرى يسودها الضعف والانحلال. "ونمى الخبر إلى الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب، ورأى أن ما هم به موسى غرر بالمسلمين فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف".[7] ومن الباحثين من يعتبر أن هذا إسراف في حسن

---

[1] المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 269.

[2] المصدر السابق، ج 1، ص 271.

[3] مؤنس حسين، موسوعة، ص 21؛ الحجي عبد الرحمن علي، مرجع سابق، ص 86.

[4] العبادي أحمد مختار، مرجع سابق، ص 70.

[5] نعنعي عبد المجيد، مرجع سابق، ص 62-63.

[6] ابن خلدون، مصدر سابق، مج 4، ق 1، ج 7، ص 255.

[7] نفسه.

الظن، لأن المسافة بين طليطلة والقسطنطينية لا تقل عن ثمانية آلاف كلم كلها جبال ومرتفعات يحتاج قطعها إلى أعداد وعدد يصعب تصورها.[1]

وبينما كان موسى يتأهب لمتابعة فلول القوط، وتطهير اسبانيا بأسرها من كل خروج ومقاومة، إذ وصله كتاب آخر من دمشق يستدعيه وطارقا، ويأمرهما بتعجيل العود.[2] ولعل أقوى البواعث التي حملت الوليد على هذا الاستدعاء ما نمى إليه من خلاف موسى وطارق، وخوفه أن ينتهي هذا الخلاف، بتفرق كلمة المسلمين ونكبتهم في تلك الأقطار الجديدة المجهولة التي افتتحوها. أو لعله خوف الوليد أن يفكر موسى بما عرف من طمعه ودهائه، في الاستقلال بذلك الملك الجديد النائي.[3]

استجاب مُوسى بن نُصير لِطلب الخليفة، فغادر مسرح العمليَّات في الشمال، بعد أن وضع فيها حامياتٍ عسكريَّة، وانصرف عائدًا إلى الجنوب ومعه طارق بن زياد، في أواخر سنة 95هـ/714م، وخلف على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى بن نصير، وأمرهُ بِمُتابعة الجهاد لِتوطيد الفتح، وترك معهُ جيشًا ونفرًا من أنجاد المسلمين ووُجوههم، وترك ابنه عبد الملك على المغرب الأقصى، في طنجة، وابنه الأكبر عبد الله على افريقية، في القيروان. [4]

وقد اختلفت الروايات في مصير موسى بن نصير، واختلف الرواة في أمر لقائه بالخليفة؛ فقيل إنه وصل إلى دمشق قبل وفاة الوليد بن عبد الملك، وقدم إليه الأخماس والغنائم، فأكرمه وأحسن إجازته، وقيل بل وصل عقب وفاة الوليد وارتقاء سليمان بن عبد الملك أخيه عرش الخلافة، وأن سليمان غضب عليه ونكبه.[5] ويقال إن طارق بن زياد شكا لسليمان سوء معاملة موسى إياه واختصاصه نفسه بخير الأسلاب والمغانم وخاصة مائدة سليمان التي طار صيتها في الروايات الإسلامية.[6] ويبدو أن سليمان ما كان في البداية على الأقل راضيا عن موسى لما سبق ذكره فعنفه بعض الشيء وأبعده ثم عفا عنه إلا أنه ما أعاده

---

[1] مؤنس حسين، موسوعة، ص 22.

[2] المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 276.

[3] عنان محمد عبد الله، مرجع سابق، ج 1، ص 54-55.

[4] ابن عذارى، مصدر سابق، ج 2، ص 12، 19؛ ابن خلدون، مصدر سابق، مج 4، ق 1، ج 7، ص 255؛ مؤنس حسين، معالم، ص 275؛ طه عبد الواحد دنون، مرجع سابق، ص 152.

[5] عنان محمد عبد الله، مرجع سابق، ج 1، ص 57.

[6] المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 280؛ مؤنس حسين، موسوعة، ص 24.

إلى الأندلس واستبقاه قربه في المشرق، وكان آنذاك قد بات طاعنا في السن مشرفا على الثمانين. ومع أن بعض المؤرخين يبالغ في وصف ما أنزل سليمان بالقائد المسلم من عذاب، وما ألحق به من الإهانات فمن المؤكد أنه في النهاية نال عفوه ورضاه وبقي قريبا منه يخرج معه في بعض نزهاته. وكذلك كان برفقة الخليفة في حجه إلى الديار المقدسة في سنة 97هـ/716م، حيث وافته المنية ودفن في المدينة المنورة.[1]

ومهما يكن الجزاء الذي لقيه موسى على يد سليمان، فإن الانسان لا يسعه إلا أن يقرر أن الخلافة لم تعرف فضله ولم تجزه الجزاء الذي كان يستحقه. فقد فتح للإسلام فتوحا تضعه في الصف الأول من رجال الإسلام الأول، وكانت له سياسة وقدرة تدفع الإنسان إلى أن يقرر في غير تردد أن هذا الرجل هو واضع أساس ما أدركه المسلمون من سلطان وحضارة في غرب البحر المتوسط، لأن فتح الأندلس كان أمرا لا بد منه حتى يطمئن المسلمون على فتوحهم في الشمال الإفريقي، ولو لم يفتح الأندلس لاستمر المغرب الإسلامي مهددا بجموع النصرانية.[2]

أما عن طارق بن زياد فإن المصادر العربية أهملت عن قصد أو غير قصد الحديث عن أيامه الأخيرة، ولم تذكر عما حدث له بعد وصوله دمشق، وأسدلت حجب كثيفة على بقية حياته، وتوفي مغمورا في طي النسيان. باستثناء ما أورده المقري في رواية أن للخليفة سليمان بن عبد الملك بدا له تولية طارق الأندلس، فاستشار مغيث الرومي بشأن مدى نفوذه وتأثيره على المسلمين في الأندلس، ولكن هذا الأخير أثار مخاوف الخليفة بقوله: "لو أمر أهلها بالصلاة إلى أي قبلة شاءها لتبعوه ولم يروا أنهم كفروا"،[3] فأثرت هذ العبارة في نفس الخليفة، فلم يسند له أمرا، وربما كان ذلك غيرة وحسدا من مغيث الرومي. ويمكن أن يفسر هذا الأمر أيضا على أن الخلافة الأموية خشيت من ازدياد نفوذ البربر في الأندلس.[4] ولكن إهمال المؤرخين أمره لم يحرمه من نصيبه من الخلود، فقد أرادت المقادير أن تحمل اسمه أول بقعة من الأندلس وطئتها قدماه،

[1] نعنعي عبد المجيد، مرجع سابق، ص 67-68.

[2] مؤنس حسين، فجر، ص 109.

[3] المقري، نفح الطيب، ج 3، ص 13.

[4] طه عبد الواحد دنون، مرجع سابق، ص 172.

وأن تنتقل هذه التسمية بصيغتها العربية محرفة تحريفا بسيطا إلى اللغات الأوربية جميعا. وانشغل الناس بذكر هذه البقعة على مر العصور، فلا يزال الناس من ذلك الحين يتحدثون عن جبل طارق.[1]

غير أن الفتوحات في الأندلس لم تتوقف بعودة موسى وطارق إلى المشرق، بل واصل عبد العزيز بن موسى بن نصير، عمل أبيه، حيث أنفق معظم أيام ولايته في استكمال فتح شبه الجزيرة، لأن الفاتحين الكبيرين قضيا على دولة القوط ووصلا إلى الحدود في كل ناحية غير أنه بقيت بعد ذلك أجزاء كاملة من شبه الجزيرة في شرقها وغربها دون فتح. وكان لا بد من استكمال فتحها، وقد قام بهذه المهمة عبد العزيز بن موسى، "فضبط سلطانها، وسد ثغورها، وافتتح مدائن كثيرة. وكان من خير الولاة، إلا أن مدته لم تطل، لوثوب الجند عليه وقتلهم له، لأشياء نقموها عليه".[2] وتذكر بعض المصادر أن الخليفة سليمان هو الذي أوعز بقتله سنة 97هـ/716م،[3] وهذه الرواية محل شك لأن الخليفة لم يكن عاجزا عن عزله إن أراد، ولم يكن ليخشى ثورته بالجند لأن الجند كان مختلفا عليه، وليس معقولا أن يكون حقد سليمان على عبد العزيز أشد من حقده على أبيه موسى.[4]

ورغم الفتوحات التي قام بها طارق بن زياد ثم موسى بن نصير ثم عبد العزيز بن موسى، فإنه يُلاحظ أنَّ قسمًا كبيرًا من المناطق الأيبيريَّة الشماليَّة لم يستمر خاضعًا لِلمُسلمين لِفترةٍ طويلة بِسبب عجزهم عن إخضاع المناطق المنيعة التي تمركز فيها بعض القوط والإفرنج الهاربين، فأصبحت نقاط انطلاق الهجمات لِلاستيلاء على ما جاورهم من بلادٍ دخلت في حظيرة دولة الإسلام.وبعد نجاح هذه الفتوحات وإلى غاية سقوط غرناطة فيس سنة 1492م، أصبحت بلاد الأندلس جزءا من دار الإسلام، وتاريخها جزءاً من التاريخ الإسلامي.

[1] مؤنس حسين، فجر، ص 110.

[2] ابن عذارى، مصدر سابق، ج 2، ص 24.

[3] ابن الأثير، مصدر سابق، ج 4، ص 144.

[4] مؤنس حسين، فجر، ص 131.